الصدر الحنون

بقلم: علاء ابو ضهير

دخلت الى غرفة المحادثة، لم اجد ذلك الاسم الغريب دوماً، كانت مسميات عاصم تحمل نفحة الحزن والألم، كان من السهل التعرف على صاحب هذا الاشتراك من مسماه، لم اجده على الشبكة، كنت قد عدت تواً من زيارته في المستشفى حيث يرقد، كان قد فقد الوعي منذ عدة ايام، لم أعتد على رؤيته بتلك الحال، كان دوماً نموذجاً للحركة والفاعلية والنشاط وها هو الآن يموت على فراشه بعد رحلة شاقة رغم قصر العمر.

دخل المكتب بابتسامة طفولية، لم أتوقع ان ذلك الوجه الطفولي سيكون قادراً على القيام بالمهام التي أوكلت إليه، قدم نفسه لي قائلاً: انا طالب نشيط ومتحمس للتطوع معكم، قلت له: إن التطوع معنا مسألة تحتاج الى جد واجتهاد، وقد لا تنجح في اجتياز التجارب والاختبارات التي ستتعرض لها، يبدو عليك حداثة السن وقلة التجربة، قال لي: امنحني فرصة وأعدك ان اكون عند حسن ظنك، بهذه المحادثة السريعة تعرفت على عاصم، كان شاباً سريع البديهة، نشيطاً، متفانياً في عمله، محباً لأصدقائه لكنه كان على موعد غريب مع الأقدار التي وجهت له الضربة تلو الأخرى دون استراحة أو فرصة لالتقاط الأنفاس.

شارك عاصم في جميع الفعاليات التي نظمناها طيلة العامين المنصرمين، ولم يتوان عن بذل جهده في القيام بواجباته ليصبح وبسرعة كبيرة المتطوع الأول في الدائرة، أحبه كل من عرفه، لم يكن عاصم من أولئك الناس الذين يحتاج المرؤ الى فترة طويلة حتى يحبهم او يعتاد عليهم، بل كان اللقاء الاول كافياً ليدخل هذا الطفل الكبير الى القلب دون إذن.

تم اعتقال والد عاصم قبل عامين تقريباً، وحمل عاصم هذا الهم قبل الأوان، كان حزنه دفيناً، لكن هذا الحزن كان يظهر بين الحين والآخر من خلال نظرات عيونه المليئة بالألم، تراكمت متاعبه عندما ُحرم من فرصة السفر الى الخارج للحصول على تدريبه وتعليمه في إحدى الفضائيات الألمانية، واستشهد احد اصدقائه قبل عام، كما استشهد صديقة الثاني قبل اربعين يوماً من لحاقه به، قال عاصم يوم وفاة صديقة: لا استطيع احتمال فراق الأصدقاء، واصيب فورها بالتهاب فيروسي في غشاء الدماغ اقعده شهراً كاملاً انتقل بعدها الى الرفيق الاعلى. يبدو ان مناعة جسده قد تضاءلت مع تراكم الحزن ورفقة الموت الذي احاط بحياته من كل جانب.

كلما فتحت جهاز الكمبيوتر وزرت الأرشيف والبومات الصور كلما قفزت صور عاصم لتصدمني بقوتها، صوره وهو يبستم ونحن نتناول الطعام او ونحن نزور احد المقاهي في المدينة، صور أخرى له وهو يلعب مع الأطفال في مخيم عسكر للاجئين، وعشرات الصور وهو يتحدث مع الزوار الأجانب، وصور أخرى في ساحات جامعته، هذا ناهيك عن عشرات المشاهد المصورة له وهو يتحدث عبر الفيديو هنا أو هناك، ذكريات حية لا يمكن حذفها من الذاكرة. صور ستبقى مرافقة لي ولكل من تطوع في البرنامج والدائرة. كنت اقول له دوماً، عاصم، يجب علينا تصوير كل منزل وحي من احياء البلدة القديمة وشخصياتها وأهلها، إذ يقوم المحتل بتحويل كل شيء فيها الى ماضٍ وذكرى، فلنحاول توثيق اكبر قدر من الصور للناس والاماكن لنجدها يوم نرغب باسترجاع الذكريات، يا لغرابة الحياة يا عاصم حين تتحول انت نفسك الى ذكرى، لنذكرك حين يغيب جسدك.

قام المشيعون بوضع التراب فوق القبر، كان تراباً ناعماً تنبعث منه رائحة ربيع الأرض، يا إلهي، كم انتظرنا الربيع يا عاصم لنقوم بتنظيم رحلتنا السنوية المعتادة كل عام حيث نذهب الى إحدى الحدائق لتناول اللوز الاخضر، تذكرتك كلما شاهدت اشجار اللوز ونحن في طريقنا لنواريك الثرى في مسقط رأسك، كانت اشجار اللوز تنتشر بالمئات على منحدرات وسهول القرى، اشجار محملة بثمار اللوز الذي بدأ بالتفتح، ليت الربيع لم يأت، لن نتناول اللوز معاً هذا العام يا عاصم.

قال لي عدة مرات، ارجوا ان تضع على عاتقي المزيد من المسؤوليات والاعباء حتى اشغل نفسي بأدائها، إن إنشغالي بالمزيد من المهام يخفف من قلقي وحزني، إنني احب زاجل لان زاجل يحب الوطن، بقي هذا الجسد مرهقاً بعبء الحياة، لم يعرف الهدوء ولا الاستقرار، كانت في حياتك لي عظات وانت اليوم اوعظ منك حياً. لم اشعر ان هذه الانسان قد نعم يوماً بالهدوء والسكينة الا يوم قبلت وجنتيه فور اخراجه من ثلاجة الموتى، شعرت ببرد شديد ينبعث من جسده، تذكرت حينها وبينما الدموع تنهمر من عيوني كلماتٍ قالها الشاعر العربي الكبير احمد رامي وهو يصف مشاعر الفنان الكبير زكريا احمد الذي فقد ولده وجلس قبالة جثته واضعاً يده عليها، قال: حطيت على القلب إيدي وأنا بودع وحيدي وأقول إسعفيني يا عين، بالدمع جودي يا عين، ارتحت كثيراً حين إسعفتني دموعي، شعرت أنني قد حررت نفسي من الخوف والاوهام. لقد ارتاح هذا الجسد أخيراً، لقد عاد جسده الى رحم الارض، تلك الارض وذلك التراب الذي ُخلق منه، واستمر هذا الجسد في الاشتياق الى العودة الى اصله تراباً حنوناً يضمه صدر هذه الارض الحنون، ولتتحرر روحه من عبوديتها للجسد لتحلق عالياً في عنان السماء.

الاموات يعيشون في ذاكرة الاحياء فقط، انهم من الماضي، والماضي يتخذ من الذاكرة بيتاً له، لا يبرحه قط، لشد ما هو رهيب هذا الموت، كي تتخلص من ذكرياتك عليك ان تهدم هذا البيت، وهدمه يعني هدم الذاكرة، وهذا من المستحيل ما دام الانسان حياً، ارغب في التخلص من ذكرياتي، من يخلصني من ذكرياتي! أي طبيب يقوم بجراحة تلغي الذاكرة، أي دواء يوقف نشاطها، أريد ان انسى او اتناسى مصائب الحياة وهمومها ولو لبرهة، احسد اجهزة الكمبيوتر لانها تستطيع وببضعة دقائق التخلص من ذاكرتها والبدء من جديد.

الجميع يذهبون بلا عودة، الموت وحده الذي يأتي، لكن عاصم لا زال بيننا، لا زلت أتوقع دخوله الى المكتب، كانت خطوات وقع اقدامة على الارض معروفة، يذكرني فيها باغنية قديمة لسميح شقير يقول فيها: صوت الدرج لما يرن بمسمعي، هاي خطوتك، والنغمة الحلوة الطالعة على الدرج هاي صرختك، وانا يا ولدي نسمة برد بايام البرد، والعين بتنطر عودتك. لقد طال ارتحالك يا عاصم فما عودتنا سفراً، إرجع الينا، نحن ننتظرك، لكنك تدري وأدري انها فرقة ليس لنا من بعدها من تلاقي. لكن الله قد يجمع الشقيقين بعدما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا، قد اكون ممن لم يستطيعوا التعبير عن حبهم لك طيلة حياتك، لكن المحبة لا تعرف عمقها الا ساعة الفراق.

واخيرا اختتم بما قاله ابو العلاء المعري:

هل نحن الا مثل من كان قبلنا نموت كما ماتوا ونحيا كما حيوا
وينقص منا كل يوم وليلة ولا بد ان نلقى من الامر ما لقوا
نؤمل ان نبقى وكيف بقاؤنا فهلا الالى كانوا مضوا قبلنا بقوا!
فنوا وهم يرجون مثل رجائنا ونحن سنفنى مرة مثل ما فنوا.

**

حُبس الجسد ارادت الروح ان تنطلق الى عنان السماء، الى الحرية، الى الانعتاق من اسر هذا الجسد.

اصعب ما في الموت أنه يأتي فجأة، والاصعب انه تجربة فردية يمر بها كل فرد على حده.

من السهل الحديث عن الموت، لكن الاصعب والاقسى هو المرور بتجربة الفقدان.

رغم موته، ورغم تسليمي بقضاء الله وقدره، إلا انني لا زلت غير قادر على استيعاب غيابه.

ويوم خروجه من المستشفى، كنت انظر إليه بجشع، فقد كانت هذه المرة الاخيرة التي سأراه فيها، نظرت اليه، لن أراه ثانية، ما هذا السر الغريب الذي يسمونه الحياة، يلتقي الانسان بأخيه الانسان ثم يتبعثرون كاوراق الخريف، احاول ان احتفظ بصورة وجهه قدر الامكان، بل لا تغيب عني هذه الصورة، تُرى هل سأنسى بعد سنوات لون عينيه! كيف يفترق صديقان فراقاً ابدياً، لم يرد ان يودعني، او ان يعانقني، لتنفطر قلوبنا الماً، لنلوح لبعضنا من بعيد، افترقنا هكذا، مرة واحدة، لم يكن يتركنا ولم نكن نريد أن نتركه.

نظرت إلى وجهه وقد ارتسمت عليه تلك ألابتسامه، لم نتبادل اي كلمة من الكلمات وأمسكت يده ولم اقــو علــى تركها.

انه دائما بجانبنا، لكنه يبتعد ويبتعد، يا للحياة على هذه الارض، ليست لدي القدرة على ندائك، ارجوك، اذكرنــي، فأنا لا انساك، اراك كلما استيقظت صباحاً، اضع يدي على خدي واسرح بعيداً، اتساءل: هل فعلا توفي عاصم! لا زلت غير قادر على تصور هذا الواقع، فكرت ملياً بعد

وفاتك بعدم الاقتراب من الاخرين، لا اريد ان احب أحداً، لا اريد ان افجع بعزيز.

تمتلكني رغبة جامحة في ان استعيد الحياة الجميلة التي عشناها سوية، أرغمت ذاكرتي على ان تسترجع الكلمــات والضحكات التي عشناها سوية.

بقي طعم الموت بين شفتي لأيام عديده، الا ان قلبي هدأ اخيراً، فقد تعرفت على الموت اخيراً على شــكل وجــه حبيب، كرفيق جاء ليأخذنا، ولكنه ينتظر بصبر كبير ان ننتهي من اعمالنا.

كم هي مؤلمة ساعة الفراق البطيئة، خاصة فراق الأصدقاء.

لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت أودعك، حين تركت يدك، أين تُرى سنلتقي ثانية!!

***